نحو منظور أنثروبولوجي للاتصال الاجتماعي

د. علي نابتي،
جامعة سعيدة.

تعني الكفاءة في الاتصال وظيفيا بأن ممارسته لا معنى لها إذا لم تكن لها علاقة بهدف نرمي الوصول إليه. فمصادر المرسل والمُتلقي تنتظمان بمراعاة هذا الهدف، إنها ستقود إلى إنتاج إجراء فعل الاتصال. إذن، ما هي الغاية من الاتصال؟ سنعتمد في تبيان وإجلاء أهمية موضوع الاتصال الاجتماعي على عرض مختصر للتراث السوسيولوجي المتصل بأهم الأفكار النظرية التي أعطى أصحابها عناية وتنويها خاصا لميزات الرابطة الاجتماعية وما يتمخض عنها من تفاعلات اتصالية وتواصلية بين أفراد المجتمع، مع إدراج نماذج من بحوث الاتصال.

بين الاتصال واللغة:

يعد الاتصال من أهم وظائف اللغة، بحيث يمتاز بنقل رسالة ما، من مرسل إلى مُتلقي كالصوت والكتابة والإشارات والإيماءات واستعمال رموز خاصة، كالشيفرة مثلا، فمن الطبيعي أن يكون الاتصال مفهوما أوسع من اللغة. يعتبر الاتصال اللغوي أكثر أنواع الاتصال انتشارا وتداولا بين الناس، لأن الإنسان، في أغلب الأحيان، هو مصدر المعلومات فهو يستطيع بفضل تركيبته الفيزيولوجية وخبراته المتراكمة، ومدركاته الحسية والعقلية، أن يحصل على أخبار يمكن نقلها إلى غيره (حنفي، ع. 1980: 86). ويتضح أن تناول موضوع لسانيات اللغة، لم يكن قاصرا على المدارس الغربية بل مثل انشغالا حضاريا فكريا لدى مجتمعات عدة. فلقد تعاملت الحضارة العربية الإسلامية مع مسائل اللغة. نستدل على هذا، بأبرز فقهاء اللغة ونعني به "ابن جني".

وقف "ابن جني" في كتابه " الخصائص " على عناصر اللغة حيث وضع التصنيف الآتي:

1/ المحورية: الصوتية والدلالية؛

2/ التضمينية: الصرفية الصوتية، المعجمية، النحوية.

وجاء بنظرية الوضع والاصطلاح، انطلاقا من الأصوات والحروف والكلمات على القول والكلام المعبر في قوله: « اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »(حنفي، ع. 1980: 25). وقد أتاح هذا التعريف التقاء" ابن جني" في كثير من النقاط حول نظرية علم اللغة وعلم اللسان الحديث أو اللسانيات الحديثة.

1/ تعريفه للغة على أنها: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.

2/ تعريف اللسانيات الحديثة للغة:

يكتسب الإنسان الكلمات فيتعلم المعاني والأفكار والمفاهيم، يقول "**تشارلز كولي**" في هذا الإطار: « عادة ما تستحضر الكلمة ثم تثير الفكرة وهنا لا نستطيع الحصول على الفكرة وتملكها دون الحصول على الكلمة أولا فكأن الكلمة تقول: إن هذه فكرة مدهشة ومشوقة، اذهب إليها واكتشفها، كما أننا نوجه أيضا نحو إعادة اكتشاف المعرفة القديمة، وكلمات مثل الخير والحق والحقيقة والحب، العدالة والجمال والحرية، ما هي إلا كلمات قوية صنعت ما قامت من أجله » (عودة، م. 1988: 24).

وينطبق ذلك أيضا على الجماعات الفرعية الداخلة في تكوين المجتمع، بحيث تتميز كل جماعة منها بثقافة فرعية معينة وبإطار لغوي خاص " لهجة ". وليس الشخص مقيدا فقط - في الراهن- بلغته الخاصة وحدودها وإنما هو مقيد ومحدد أيضا بواسطة اللغة أو اللغات التي هو على علم بها وبخاصة في راهن الثورة الاتصالية التي ربطت أرجاء المعمورة.

أ.1/ أوجه الاختلاف بين الاتصال واللغة:

نتحدث عن هذه المسألة من خلال طرح الملاحظات الآتية:

أولا: من منطلق أن الإنسان هو الركيزة الأساسية في كل اتصال فهذا يحيل إلى علاقة الاتصال اللغوي بالسلوك. فإذا أردنا أن نتعرف إلى نفسية شخص من الأشخاص، فما علينا إلا أ ن نطالع ما كتب، أو نستمع

إليه عندما يتحدث، فقديما قال الشاعر العربي زهير بن أبي سلمى في هذا الشأن:

لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم؛

ثانيا: يتم الاتصال بوضع الرسالة في رموز، ثم فك تلك الرموز وتأليف الرسالة من جديد. أما اللغة فهي تتكرر كثيرا من المرات، وبصورة متلاحقة، إذ إن المرسل والمُتلقي يتبادلان الأدوار مابين الاستماع والتكلم؛

ثالثا: تمتاز لغة البشر، بما يسمى بالاتصال الذاتي، فكل متحدث قادر على أداء عمليتي الإرسال والاستقبال معا. فالإنسان عندما يتكلم، يسمع في الحين ذاته كلامه، ويلاحظ الأثر الذي أحدثه كلامه في السامعين؛ وهذا ما يدفع بالإنسان إلى تغيير كلامه إذا أحدث أثرا سيئا، ويعدل من صوته إذا خالطه ما يفسد صفاءه. و هذا ما يُعرف برجع الصدى أي أثر التلقي في الإرسال، وله أهمية كبرى في فهم كثير من قضايا اللغة، كالخطيب الذي يراقب أثر كلامه في الجمهور، والكاتب الذي يلتزم بمبادئ معينة تجاه قرائه، والسياسي الذي يزن كلامه بحسب مقتضيات المقام؛

رابعا: الرسالة في الاتصال عبارة عن متوالية "Séquence" متألفة من إشارات "Signaux " أما الرسالة في اللغة، فهي سلسلة من الجمل والتراكيب المتألفة من علامات " Signes "(حنفي، ع. 1980: 90- 92).

أ.2/ مفهوم الرسالة ووظائف الاتصال:

أ.1.2/ مفهوم الرسالة le message: يعتبر مفهوم الرسالة عاملا أساسيا في كل محاولة تستهدف فهم الاتصال. فكل العلوم الإنسانية وغيرها من العلوم أضحت لا تستغني عن الاتصال؛ إن حرصنا على إيضاح مفهوم الرسالة هو الذي سيساعدنا على معرفة الأشكال التي تتقمصها ليبلغ بها الأشخاص أهدافهم من الاتصال. يؤكد "زارفسكي - Zarefsky "(1993) بأن موضوع المقاربة العلمية للاتصال البشري يكون بدراسة العلاقة بين الرسائل والقائمين بها، ونذكر بأنّ مورين -

Morin(1996) أبدى أسفه من تهميش وإقصاء الرسالة في مقاربات الاتصال في العلوم الاجتماعية، لقد توخى بعض الفائدة من الرسالة لتثمين شكل المعبر عنه: بنية وتركيب وكلام (Beaudichon, J. 1999: 56).

يرى "مورين" أنّ تحليل الرسالة يجب أن ينطلق من ثلاثة مستويات:

البنيات المنجزة من منطلق المعالجة العقلية الإدراكية من قبل المتحدث؛

2 - نمط المحتوى المرسَل عبر الرسالة؛

3 - أهداف المرسل والمُتلقي من وراء تأويلهما للرسائل المتبادلة (Beaudichon, J. 1999:57).

ركز السوسيولوجيون الأوائل عند دراستهم لموضوع الاتصال على التفاعلات التي تعج بها الظاهرة الاجتماعية، فلقد أخذ غبريال تارد- G. Tarde "(1843- 1904) من " دور كيم" دراسته للظواهر الاجتماعية مفصولة عن الأفراد باعتبارهم كائنات واعية تتمثل هذه الظواهر، ومقاربتها باعتبارها أشياء خارجة لقد رأى تارد ضرورة الاعتناء بالطبيعة الذاتية للتفاعلات الاجتماعية بهدف تشييء الأحداث الاجتماعية. (ماتلار، ب. ميشال، ج. تر: لعياضي، ن. الصادق، ر. 2005: 37).

قد يعتري الرسائل المتبادلة بين المرسل والمُتلقي عدم الفهم والقصور في التأويل، وهذا ما أطلق عليه "ولبور شرام- W. Schramm " الخبرة المتباعدة في عملية الاتصال الإنساني، ولقد اقترح " شرام " للتخلص من الخبرة المتباعدة، الاستعانة بمترجم يشترك في جزء من خبراته مع خبرات المرسل، كما يشترك مع المستقبل في جزء آخر من خبراته (الشال، إ. 2001: 52). يميز " فيستنجر- Festinger " (1954) في الاتصال نوعا يجد فيه الموضوع إشباع حاجته التي دفعته إلى القيام بالفعل في حد ذاته، فالأثر المرجو نحصل عليه بالإنتاج نفسه. كقولنا مثلا : « كان يجب علي أن لا أقول هذا، ولكن هذا أراحني »، أما النوع الثاني فيتصل بالأثر الملائم مع

الحاجة التي أثارته وهو ما يحيل إلى الحوافز الشخصية والتوظيفية - بلوغ الهدف- للتعامل مع المحيط بما فيه الذات. (Festinger, L. 1964 :67).

يستهدف فعل الاتصال آثارا ظاهرة وخفية، تتعلق بالتصرف مع الآخر أو مع ذواتنا بطرق عديدة. هذا الفعل يحوي شكلين: الإعلام أو طلب الإعلام حول مظهر من " العالم المحيط" قد يكون حدثا، فكرة، مفهوما إحساسا، رأيا، انفعالا، في كل الحالات هي إحالات إلى الاتصال.

في سنة 1982 أثار " بيير شايفر- Pierre Schaeffer " مفهوم المناخ الاجتماعي الذي يتم فيه الاتصال الإنساني بحيث يرى "شايفر" بأنه يصبح احتماليا، ما دام يحدث بين أفراد من المجتمع البشري يتميزون بعنصر المبادرة والمصالح والرغبات والمخاوف...، ويخضعون لظروف عديدة ومتنوعة (الشال، إ. 2001: 60) يؤشر هذا المُعطى إلى أن الباحث يضع في الحسبان العوامل النفسية والاجتماعية والدينية والإيديولوجية التي يتم الاتصال في إطارها. وضمن المنظور ذاته، نجد في تراث السوسيولوجيين الأوائل الأفكار التي تناولت موضوع الاتصال في ضوء مفاهيم: الرابطة الاجتماعية والجماعات الاجتماعية. وعلى صعيد مُماثل، عارض " جورج سيمل - G. Simmel" (1858- 1918) أفكار السوسيولوجيا التنظيمية التي ترى في السلوكيات الفردية انعكاسا لمعطى معين أو " أحداث اجتماعية " خارجية، وطرح بديلا عنها له صلة بفكرة الواقع الاجتماعي الذي تسبقه وتشكله التبادلات والعلاقات التفاعلية بين الأفراد، أي حركة تفاعلات بين ذوات لها خصوصيتها، ما أطلق عليها سيمل " شبكة الانتماءات". لقد اهتم بالأفراد في علاقتهم الجماعية التفاعلية اليومية، مقابل نظرة سوسيولوجية تعتمد على ما هو "مؤسس" مثل الدولة والعائلة، والطبقات، والكنائس، والتجمعات وجماعات المصالح المشتركة؛ رأى أن هذه التفاعلات اليومية هي التي تكشف لنا طبيعة الصيرورة الثنائية المتناقضة للظاهرة الاجتماعية، التي تنشأ عن المُكملات والتعارضات المتلازمة: التآلف والتنافر؛ فالفكرة الأولى عبر عنها مجازيا، بالجسر وهي تحيل إلى قدرة الفرد على الجمع بين

المتناقض والمتنافر. أما الفكرة الثانية، فقد أوردها مجازيا بكلمة الباب، وهي تمثل قدرة الفرد على الربط، بحيث تتيح له الوصول إلى نظام آخر من الدلالات (ماتلار، ب. ميشال، ج. تر: لعياضي، ن. الصادق، ر. 2005: 37- 38).

أ.2.2/ يدفعنا هذا التحليل للحديث عن وظائف الاتصال؛ فالكلام في عمومه ليس سوى وظيفة يضطلع بها الاتصال كما رأينا في مبحث الاتصال واللغة؛ لقد أثر نموذج " شانون "(1958) في الاتصال على باقي النماذج التي تناولت الاتصال الإنساني فيما يتعلق بوظائف الاتصال. لقد توصل شانون إلى أن اللغة تفسح المجال لوظائف تتلاءم مع صيرورة الاتصال من المصدر إلى المستقبل، حيث ذكر ست وظائف على النحو التالي (Beaudichon, J. 1999:69): 1- وظيفة انفعالية، عاطفية متمركزة حول المرسل؛ 2- وظيفة إغرائية تحريضية متمركزة حول المُتلقي؛ 3- وظيفة phatique متمركزة حول القناة؛ 4- وظيفة ذاتية الدلالة متمركزة حول الرمز؛ 5- وظيفة شعرية متمركزة حول بنية الرسالة؛ 6- وظيفة مرجعية متمركزة حول المحيط الذي تُبعث فيه الرسالة.

اختصر بعض الباحثين تلك الوظائف في ثلاث وظائف (Beaudichon, J. 1999:70):

1- مرجعية 2- تعبيرية 3- إغرائية.

هنالك مكانة مرتبطة بالاتصال ذي الوظيفة الإدراكية (Beaudichon, J. 1999:70)، تساعد على التعرف على مظاهر الواقع وهي تتبلور في خضم تفاعلات، تستمد شدتها من وصاية أم عقد تعليمي، في حالة ما إذا كان المعنيون واعُون بوضعية أدوارهم وصلاحياتهم المتبادلة، وملتزمون بمحتوى المدونة التعليمية. أما الخاصية الثانية للوظيفة الإدراكية للاتصال تتلاءم مع المراقبة المعرفية لمختلف الأفعال، هي مراجعة للعلاقة مع الوضعية الآنية، يصبح الهدف منها تسيير الصعوبات، استثمار مختلف الحلول، ضبط الانفعال.

من أبرز الدراسات السوسيولوجية، التي تستند عليها نظرتنا البحثية، هو ما اهتم به تشارلز كولي - Ch. Cooley (1864- 1929) في موضوع اثنوغرافيا التفاعلات الرمزية للفاعلين الاجتماعيين، فلقد كان أول من استخدم عبارة " الجماعة البدائية النووية " والتي :« تتميز بالتلاحم والتعاون الواجهي الحميمي بين أعضائها فهي بدائية أكثر من معنى، كونها تمثل الأساس في تشكل الطبيعة الاجتماعية والتصورات الفردية» (ماتلار، ب. ميشال، ج. تر: لعياضي، ن. الصادق، ر. 2005: 44).

انتقد "كولي" تلك القراءات الأحادية لصيرورة التحضر التي أوهمت الكثيرين، باختفاء الجماعات النووية تحت طائلة تلك البيئة الغربية التي غدا يحكمها التوتر بين المجتمع والفرد. لقد أهمل أولئك في تحليلاتهم التفاعلات القائمة بين النزعات التوحيدية للمدينة والواقع المعيش للسكان.

والواقع أن الخيار الاثنوغرافي نفسه يحكمه تصور معين لصيرورة الفردية وبناء الذات، فالفرد الذي يخضع لقوى المجانسة والتوحيد القيمي والسلوكي (تلقينه وتمثله لمعايير وقيم الجماعة) يحوز تجربة خاصة متفردة تتجلى في تاريخ حياته. هذه التصورات فيما يتعلق بالازدواجية في الشخصية الحضرية قد تطرقت إليه كذلك " مدرسة شيكاغو"، التي رأى روادها بأنه لا يمكن الحديث عن الاتصال من دون ربطه بالتعددية الفردية، فإذا كان الفرد خاضعا لقوى التوحيد، فإنه مع ذلك يملك القدرة على" التحايل" عليها وإبراز فرديته (ماتلار، ب. ميشال، ج. تر: لعياضي، ن. الصادق، ر. 2005: 45).

من جهته، اهتم كيرت ليوين- K. Lewin (1890- 1947) بآليات اتخاذ القرار ضمن الجماعة وظاهرة قادة الرأي و "ردات أفعال" الأعضاء على الرسائل التي يتم بثها حسب أشكال الاتصال والتواصل المتعددة كجماعة الاتصال الواجهي (العائلات، الجيرة، الجماعات...).

ركز ليوين جهده البحثي لوضع إستراتيجيات إقناعية، استهدف بها تغيير مواقف ربات البيوت في ما يخص تحضير الوجبات الغذائية، لقد جاء

بعد سلسلة من التجارب بفكرة "حارس البوابة" أو المتحكم في تدفق المعلومات باعتبارها وظيفة يقوم بها قادة الرأي غير الرسميين (عودة، م. 1988: 121- 122).

الاتصال الشخصي: الخصائص والسياق

ب.1/ تعريف الاتصال:

يمكن الاستشهاد بتعريفات كثيرة لمفهوم "الاتصال"، غير أننا سنقتصر على بعضها، لإبراز الاتجاه السائد نحو استخدام هذا اللفظ للدلالة على المبادلات البشرية المتنوعة، التي تجري بين الأفراد والجماعات ليس فقط بالاتصال اللفظي، ولكن كذلك بالإشارات والرموز.

يعرف روبرت رد فيلد - R. Redfield : « الاتصال هو... المجال المتسع لتبادل الحقائق و الآراء بين البشر» (لجنة ماكبرايد، ش. 1981: 575). فيما يعرف لوندبرج - Lundberg :« الاتصال هو...نوع من التفاعل الذي يتم عن طريق الرموز، و التي قد تكون حركية أو مصورة أو تشكيلية أو منطوقة، أو أية رموز أخرى تعمل كمثير لسلوك لا يثيره الرمز ذاته ما لم تتوافر ظروف خاصة لدى الشخص المستجيب له» (لجنة ماكبرايد، ش. 1981: 576)، أما ريفس - Revesz يرى أن :« الاتصال يشمل..كل أشكال التعبير التي تخدم أغراض التفاهم المتبادل»(لجنة ماكبرايد، ش. 1981: 576)، في حين يسهب "برلو- Berlo" في القول":« إن الغاية الأساسية للمرء هي تعديل العلاقة الأصلية بين كيانه وبين البيئة التي يجد فيها نفسه وعلى وجه التحديد يستهدف المرء أساسا تقليل احتمال تحوله إلى مجرد هدف تصوب إليه القوى الخارجية وزيادة احتمالات ممارسته هو القوة. فغاية المرء الأساسية من الاتصال هي أن يصبح عاملا مؤثرا في الآخرين وفي "بيئته" المادية و في نفسه، عاملا حاسما يحسب له حساب. وخلاصة القول، أننا نتصل بالآخرين للتأثير فيهم عن عمد» (لجنة ماكبرايد، ش. 1981: 576).

فعلى ضوء هذه التعاريف، فإن الاتصال الشخصي، هو تبادل شخصي للمعلومات، أو عملية تبادل المعلومات والأفكار والأخبار التي تتم بين الأشخاص دون عوامل أو قنوات وسيطة، وفي هذه العملية يمثل أحد الشخصين دور المرسل بينما الآخر دور المستقبل أو المُتلقي.

يتمتع الاتصال الشخصي بطريقتين لتبادل المعلومات، بحيث أن المُتلقي قد يطلب مزيدا من المعلومات لتوضيح الأفكار التي يقصد إليها المرسل، وتتبع الحقيقة التي مفادها أن الاتصال الشخصي أكثر فعالية من الاتصال الجمعي، من منطلق أن الشخصين اللذين يتفاعلان - أثناء عملية الاتصال- غالبا ما يكونان في ولاء لطاقم من القيم والاتجاهات، ومن هنا فإن كل واحد منهما يكون بمثابة شخص مرجعي للآخر.

يتميز الاتصال بين الأشخاص بدرجة عالية بما أطلق عليه "شرام " التغذية المرتدة أو التجاوب، فالاتصال الشخصي يتم بواسطة أفراد أو جماعات محدودة. ضمن هدا السياق، يعتقد هارولد مندلسون أنّ وجود المجتمع قائم على الاتصالات الشخصية:« فلقد وجدت المجتمعات - دائما- و توجد الآن دون الاعتماد على فائدة أي نسق من أنساق الاتصالات الجمعية » (عودة، م. 1988 : 85).

وهذا في ما نعتقد ما يفسر نقل التراث الاجتماعي من جيل إل جيل، أوجه النشاط المخططة للاتصال بما في جعبة جماعة ما من المعايير الاجتماعية والمعلومات والقيم وما شابه ذلك على دروب المجايلة، أو من جماعة إلى أخرى أو من أعضاء قدامى - في جماعة - إلى أعضاء جدد. وعلى الرغم من اهتمامه بدراسة الاتصال الجمعي المُرتبط بوسائل الإعلام الجماهيري، فلقد خلص " جوزيف كلابر" في خواتيم بحوثه بأنّ :« اتصال الوجه للوجه أكثر الوسائل فعالية في ما يتعلق بآثار الإقناع والاقتناع» (عودة، م. 1988 : 86). فالاتصال الشخصي ينظر له - عموما- بوصفه أكثر الأدوات فعالية بالنسبة للناس، فحينما يؤثر شخص في آخر فإنّ مرد هذا التأثير لا يرجع فقط إلى العلاقة بين المرسل والمُتلقي وطبيعتهما، ولكن إلى

الأسلوب والطريقة التي ينتميان - بها- إلى دوائر وحلقات من الأصدقاء والأقارب وما إلى ذلك من أصناف العلاقات. وقد اتضحت أهمية الاتصال الشخصي في مجال التأثير سواء جرى هذا الاتصال في مجتمعات حديثة أم في مجتمعات تقليدية وإن كان في الثانية يفوق الأولى، حيث يعد مصدرا بديلا إلى حد كبير وبخاصة في حالة غياب نسق أو نمط من اتصال وسائل الإعلام الجماهيري (رشتي، ج. 1972: 55).

وقد أصبح من المفترض سلفا، أن الآراء تتشكل بواسطة صفوة من المجتمع، وحينئذ تتسرب هذه الآراء من طبقة اجتماعية إلى أخرى حتى تتشابه آراء الجميع من آراء هذه الصفوة التي تتربع على قمة بناء المجتمع المحلي. فلكلّ طبقة اجتماعية قادة رأي ينتمون إلى الطبقة نفسها، بمعنى آخر يتصدر كلّ طبقة الأشخاص الذين يستشارون في أمورها أو الأشخاص المؤثرون بالنسبة لها.

ب.2/ سياق الاتصال الشخصي: يعتبر الباحث الأمريكي "ادوارد هُول- E. Hall " من أبرز الباحثين الذين كشفوا عن الخصائص والتفاصيل الهامة في الأبعاد السياقية للاتصال الشخصي في مؤلفه "اللغة الصامتة". إن الاتصال - حسب هُول- لا ينشأ في فراغ بل في سياق ثقافي، تحكمه قواعد وقوانين تحدد صيرورته. وعلى هدا الأساس فإنّ إدراكنا لمعنى السياق الثقافي لا يكون مهتما أكثر إلا عند اكتشافنا ثقافة غريبة عنا (هول، إ. تي. تر: اليحيي، ل. ف. 2007: 127- 136). أما في كتابه الثاني الموسوم بـ " البعد المخفي" تحدث "هول" عن مبدأ التقارب: Proxémique، وكيف يتدخل في اتصالاتنا الشخصية غير اللفظية بحيث ناقش هذا المبدأ ضمن معطيين رئيسيين هما الزمان والمكان (189- 161 :Hall, E. T. 1978).

ب.2. 1/ الزمن (Temps): الزمن يتكلم (هُول، إ. تي. تر: اليحيي، ل. ف. 2007: 181- 208)، فهو نمط من أنماط الاتصال الشخصي، غير أن معظم الثقافات تتعاطى معه كمعطى مادي: يُذكر من باب الربح أو

الخسارة، نعطي أو نمنح جزءا منه، فهو شيء ثمين فالأمريكيون - مثلا - يقولون عنه: « الوقت أخضر» وهي إشارة إلى لون الورقة النقدية للدولار، بمعنى أن الوقت هو المال أما في أوربا يقولون: « الوقت من ذهب»، أما عند المسلمين، زمن إشراقهم قالوا: « الوقت هو الحياة».

من ملامح تطور وتقدم الحضارة الأمريكية، نجد الدقة في المواعيد، واحترام الوقت ميزة من ميزات هذه الثقافة، فالتأخر أمر غير مسموح به، قد تكون له آثار غير مرغوب فيها. أما في الثقافات الراكدة والخارجة أصلا عن مفهوم الزمان، فإنّ التأخير لا يُنظر إليه كإهمال ولا مبالاة بالمسؤولية، ففي المكسيك - مثلا- من العادة أن يصل الموظفون والعمال متأخرين عن مواعيد العمل الرسمية بساعة ونصف دون أن يُنظر إلى هذا الفعل على أنه غير مقبول، لهذا فإن الكشف عن مفهوم الوقت في ثقافة معينة هو من الأهمية بمكان في فهم صيرورة الاتصال. يتصل الوقت أيضا بقضية أخرى : فالوقت الذي يستغرق في الاستقبالات له مدلوله فالمواطن الذي يطول انتظاره في شباكيك الإدارة من أجل الظفر بوثيقة إدارية، قد يستغرق إمضاءها بضع دقائق، يكون الموظف المعني - خلال ذلك- منشغلا بلعب الكلمات المتقاطعة أو إجراء مكالمة هاتفية شخصية وغيرها من السلوكات المشينة. في الولايات المتحدة الأمريكية ليس غريبا أو مستحيلا أن يقوم شخص بعدة أشغال في آن واحد، سواء في مكتبه أو متنقلا من مكتب لآخر عدة مرات في اليوم (هول، إ. تي. تر: اليحيي، ل. ف. 2007: 180- 207).

ب.2. 2/ المكان أو الفضاء: يعرفه هُول بأنه: « كلّ شيء حي يملك حدا طبيعيا أو ماديا يفصله عن المحيط الخارجي، من الجرثومة إلى أبسط خلية لدى الإنسان، وكلّ عضو يملك حدودا يمكن إدراكها هي المحدد لبدايته ونهايته».(Hall, E. T. 1978: 131)، تكتسي التصرفات الفضائية أهمية في الاتصال الذي يحدث بين الناس، فخرق قواعدها قد ينجر عنه صعوبات في الاتصال.

تنخرط في مفهوم الفضاء مجموعتان من الأبحاث هما: الإقليم والمسافات الشخصية.

الإقليم: في الدراسة الظاهرتية لـ"دافيد سيمون - David Seamon "، توصل إلى أن الناس يتحدثون بعطف و حنين عن الأماكن التي تهواها قلوبهم، و تلك التي رحلوا عنها، أفادت ملاحظة "سيمون" معنى الارتباط العاطفي والوجداني في حالة التفاعل بين الشخص والمكان. (Hall, E. : 72 T. 1978) ولمزيد من الفهم لهذه الظاهرة، تحدث الباحثون عن نوعين من الفضاءات. (Ghilione, R. 1986: 116).

أ/. الأماكن التي نقصدها مرة واحدة أو تلك التي نتردد عليها بصفة منتظمة، قد تكون مزدحمة مما يصعب من اختيار مكان معين، و يقلل من فرص الاستيلاء عليه و حيازته، فوجودنا في مثل هذه الأمكنة هو الذي يكسبها الدلالة والمعنى؛

ب/. الأماكن التي تكون آهلة بصفة مستمرة كالسجون أو المدارس أو المستشفيات الإقامية؛ فهذه الفضاءات تتضمن فكرة العودة إلى المكان وكذا الاعتراف المستمر بالحقوق الإقليمية.

إن الحديث عن مفهوم الفضاء أو المكان لا يقتصر فحواه على عاملي: الميل إلى الانعزال والتعلق بالمكان بل هنالك معان أخرى أكثر ثراءا وتنوعا، بخاصة في المجتمعات التقليدية التي يضفي أفرادها على المكان تعابير رمزية؛ فتنظيم الفضاء المسكون هو كذلك ضرورة.

المسافات الشخصية :

عرفها "هورويتز - Horowitz " وآخرون : « المنطقة المحيطة بكل فرد، والتي تمثل حدودا بين ما يحس على أنه داخلي بالنسبة لما يحسه على خارج ذاته... » (Ghilione, R. 1986: 124)، وعرّفها Sommer بأنها: « فضاء محيط بالجسد يعتبر أي تدخل أو اجتياح من طرف الغير، تهديدا يسبب له الضيق والقلق و يثير فيه السلوك الدفاعي ».(Ghilione, R. 1986: 124).

قام هُول- Hall بتصنيف ثلاثة مستويات من المسافات تحكم معظم علاقاتنا مع الآخرين وهي: المسافات الحميمة الخاصة وتنقسم إلى (160-143 :Hall, E. T. 1978) :

مسافة جد قريبة: ما بين 7 و 15 سم، تصلح للهمس، اتصال حميمي ودي؛

مسافة قريبة: مابين 20 و 30 سم، تصلح لتبادل معلومات سرية؛

مسافة أقل قربا: بين 30 و 60 سم، تصلح للحديث المتبادل بصوت منخفض.

المسافة الاجتماعية: وهي بين 2 و 30 مترا، عندما يتم خرق هذه القواعد الموضوعية، أي التعدي على هذه المسافات، يجلب المضايقة والقلق.

رأى الباحثون الذين استخدموا فكرة شبكة العلاقات أنه من الضروري توضيح خواص تلك الشبكات لتفسير المادة الحقلية، فقد ركزوا على طبيعة العلاقات بين الناس في الشبكة على أنها أهم خاصية. إن الدراسات التي أجريت على شبكة العلاقات تظهر بعض الخواص المورفولوجية أو الشكلية كما تظهر خواص تفاعلية عديدة. (غانم، ع. ع. 2004: 154- 155).

إن أهم جانب تفاعلي للعلاقات في الشبكة الشخصية من وجهة النظر السوسيولوجية (غانم، ع. ع. 2004: 158- 165) هي التي تتعلق بالمعاني التي ينسبها الفرد لعلاقاته في الشبكة، أو بمعنى آخر المعاني التي يضفيها الفرد على علاقاته سواء كانت علاقات اقتصادية أو دينية أو اجتماعية...، فعلاقة الفرد بالناس الذين يتفاعل معهم تأتي إلى الوجود لغرض معين، أو بسبب بعض الاهتمامات التي يعترف بها بعض الأطراف أو كلهم ، ومضمون الروابط في شبكة الفرد ربما يكون معونة اقتصادية أو التزاما قرابيا، أو تعاونا دينيا أو ربما صداقة والقائمون بهذا السلوك، يتصرفون في حدود المعايير والقيم والمعتقدات التي ينخرطون فيها.

ويشير " كابفرر- Kapferer " إلى أن مضمون التفاعل هو التبادل، وهو يميزه عن فكرة المضمون التي استخدمتها "ويلدون" بحيث أنّ مضمونها يشير إلى السياق المعياري الذي يحدث فيه التفاعل مثل القرابة والصداقة،

والمعتقدات الدينية الشائعة..إلخ. فمضمون العلاقة في شبكة العلاقات الاجتماعية غير ظاهر ولا يلاحظ مباشرة، حيث يستدل عليه في السياق العادي للدراسة.

تعتبر خاصية تردد أو تكرار الاتصال بين الناس في الشبكة أكثر صلاحية للتكميم بالمقارنة مع الخواص السالفة الذكر، فهي مدخل للتفاعل في الشبكة، فمن بين ميزاتها عملية انتظام الاتصال كعامل هام في تفسير السلوك الاجتماعي. (غانم، ع. ع. 2004: 155- 158). والتردد أو التكرار للاتصال لا يتضمن بالضرورة شدة أو قوة في العلاقات الاجتماعية، فالاتصالات والالتقاء بزملاء ورفقاء العمل يمكن أن يتم بصفة منتظمة ومتتالية غير أن تأثير رفقاء العمل أو الأصدقاء على سلوك الفرد قد يكون أقل من تأثير القريب أو النسيب القوي الذي يراه الفرد أحيانا أو نادرا و بصورة غير منتظمة.

حاولت الدراسة الراهنة تسليط الضوء على موضوع الاتصال بوصفه عصب العلاقات الاجتماعية ومحرك مختلف تفاعلاتها، بحيث رافعت مباحثها لإبراز أنّ الاتصال كتجربة أنثروبولوجية مُنتجة لأنساق سوسيو- ثقافية أضحت تُمثل مجالا خصبا ومدخلا مُهما في مقاربة الفعل الاتصالي للحياة اليومية المألوفة.

وخلاصة القول، علينا أن ندرك أن الاتصال ليس مجرد تفاعل اجتماعي فحسب بل يدخل ك ميكانيزم في تنظيم الفضاء الاجتماعي وتأثيثه، وحتى كمصدر لهكذا تغيير فيزيقي ضمن ارتباطه الوثيق بالخصوصيات الثقافية وتمثل الآخر.

قائمة المراجع

د. الشال، انشراح (2001). مدخل إلى علم الاجتماع الاعلامي، ط1. القاهرة: دار الفكر العربي.

أرمان و ميشال ماتلار (2005). تاريخ نظريات الاتصال، ترجمة: د. لعياضي نصر الدين و د. الصادق رابح، ط1.بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

د. حنفي بن عيسى (1980). محاضرات في علم النفس اللغوي، ط2. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.

د. عودة محمود (1988). أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي، ط1. بيروت: دار النهضة العربية.

د. غانم عبد الله عبد الغني (2004). طرق البحث الأنثروبولوجي، ط1. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.

. د. رشتي جيهان أحمد (1972). نظم الاتصال، ط1. القاهرة: دار الفكر العربي.

لجنة شون ماكبرايد (1981). أصوات متعددة وعالم واحد، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، منظمة اليونيسكو.

.هُول إدوارد توتشيل (2007). اللُغة الصامتة، ترجمة: لميس فؤاد اليحيي، ط1. الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع.

BEAUDICHON Janine (1999). La Communication, Paris: Armand Colin.

FESTINGER Leon (1964). Conflict, decision, and dissonance, Stanford: Stanford University Press.

GHILIONE Rodolhe (1986). L'homme Communiquant, Paris: P.U.F.

HALL Edward. T., (1978). La dimension cachée, traduit par Amélie Petita, Paris: Éd. Du Sueil.